تاريخ الشيخ

ظاهر العمر الزيداني

حاكم عكا وبلاد صفد

تأليف

المرحوم ميخائيل نقولا الصباغ العكاوي

عني بنشره وتعليق حواشيه

الخوري قسطنطين الباشا المخلصي

شركة نوابغ الفكر

القاهرة

ت/ ٢٥٩٣٦٤٠٢، فاكس: ٢٧٨٦٥٥٥٣

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠

حقوق الطبع محفوظة للناشر

شركة نوابغ الفكر

هاتف: ٢٥٩٣٦٤٠٢ فاكس: ٢٥٩٣٦٢٧٧

E-mail: nawabgh_elfekr@hotmail.com

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

الصباغ، مخائيل بن نقولا بن إبراهيم ، ١٧٧٥ - ١٨١٦

تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني: حاكم عكا وبلاد صفد / تأليف المرحوم مخائيل نقولا الصباغ العكاوي

- ط١ - القاهرة: شركة نوابغ الفكر ، ٢٠١٠

١٥٨ ص : ٢٤ سم

تدمك: ١-٨٦-٦٣٠٥-٩٧٧-٩٧٨

١- فلسطين - تاريخ - العصر الإسلامي ٦٤٠ - ١٩١٤

١- الزيداني، ظاهر العمر - ١٦٨٩ - ١٧٧٥

أ- العنوان

ديوي: ٩٥٣.٠٧٣

رقم الإيداع: ١٧٥٨٦ / ٢٠١٠

مقدمة

لا ريب بأن الشيخ ظاهر العمر الزيداني رجل عصامي يصح أن يقال عنه إنه كان فريد عصره ومن نوابغ رجال الشرق وكفاه فخرًا أنه بعقله ساد قومه وبعدله وحسن سياسته وجسارته وشدة بأسه أنشأ دولة ذات شأن في قلب دولة بني عثمان وهي في أوج عزها. فلا جرم أن تاريخه كله عبر وأعمال تستحق أن تخلد في سجل التاريخ الصادق فهو تاريخ نهضة وحرية واستقلال وتجديد عمران عكا وحيفا والناصرة وجميع البلاد التي استولى عليها أو حالف أصحابها فإنه من برية عرابة البطوف (منشأه الأول) أخذت سطوته تجاري حكمه بالامتداد إلى طبرية والناصرة وصفد وبلادها إلى عكا وحيفا وجميع بلاد حارثة إلى جبل نابلس وجميع بلاد فلسطين، ثم إلى بلاد بشارة وجبل عامل، إلى صور وصيدا وبيروت وجبل لبنان، إلى جبل عجلون ومرج عيون. حتى غدت تركيا تخاف بأسه وتهاب سطوته. وبلغ أمره كبار ملوك أوربا في ذلك العهد، وقامت حينئذ تخطب وده ملكة روسيا كاترينا الثانية نادرة الملوك والنساء مع يوسف الثاني قيصر النمسا وجرمانيا. ولولا عيبه من لوده لكان فاز بالاستقلال المرغوب وأورثه لمن يصلح له من أولاده وما كانت هذه البلاد المنكودة الحظ وقعت بمخالب الجزَّار الذي كان لا محالة شر الحكام.

ومن المعلوم أنه لم يكن أحد يتجرأ في عهد تركيا أن ينشر له تاريخًا كاملًا صادقًا إذ كان يحسب عدوًا لها ومجاهرًا بالعداء لرجالها. لكن إذ قد تقلص اليوم عن هذه البلاد ظل تركيا المخوف بحمد الله تعالى وأطلقت الحرية لأصحاب الأقلام وأخذوا ينشرون تاريخ الوطن ورجاله الأعلام بدون قيد ولا خوف.

وإذ كنت من المولعين بالتاريخ ومن المشتغلين بالبحث عن آثاره أسعدني الحظ

بأن وقع لي في بعض المخطوطات القديمة تواريخ أو سير مختلفة لهذا الرجل الفريد واجتمع عندي بعض المراسلات التي دارت على ما جرى له حينئذ، وأصحابها من عكا ومن ذوي الشأن فيها. فقد شاقني ما جاء فيها من التفصيل والتعليل ولهذه الحوادث مع بعض الاختلاف بالرواية فيها لاختلاف مشارب أصحابها ومقاصدهم في تحريرها. ولها فضل وميزة على ما في كتب التاريخ المطبوعة التي أتت عرضًا وبالإيجاز على ذكر شيء من تاريخ هذه الرجل القذ فكان تاريخه بالطبع فيها ناقصًا وقاصرًا على القسم الأخير من حياته.

وربما قصد بعضهم تفكيه المطالع بحكاية ما بلغ إليه هذا الشيخ من الحكم الواسع والعز الباذخ وما ولي ذلك من الانقلاب السريع والبلاء العظيم.

ولعلهم قصدوا بهذا الموعظة والعبرة التي لا يخلو منه التاريخ. وقد رام بعضهم التزلف بذلك إلى الحكام والتقرب إلى الجزار (خلفه في حكم عكا) الذي كان بلا شك أشد الحكام هولًا وجورًا فلا غرو إذا كان الأقلام تجري حينئذ مقيدة بسلاسل الخوف والرهبة من جوره وشره. وقد طالما رأيناها تجري كذلك في عهد الأتراك أو بالتقليد والاتباع. ولهذا كان التاريخ عندنا لا يخرج عن النقل بدون نظر ولا نقد.

وأول هذه التواريخ التي وقفنا عليها بهذا الشأن وأوسعها تفصيلًا وأجملها تعليلًا وأفضلها ترتيبا وأقربها للصدق والصواب وأولاها بالنشر وأجدرها بالطبع هو التاريخ الذي ألفه الكاتب البارع المرحوم مخائيل نقولا الصباغ العكاوي. وقد أخذ مفصل حوادثه عن أبيه وأعمامه وأستاذته الذين كانوا كلهم من المقربين إلى هذا الشيخ، وقد وقفوا على حقيقة أمره وعرفوا جلية خبره. وكان لديه سندات تاريخية مهمة ذكرها بنصها أو أشار إليها.

وقد كتبه في باريس موطن الحرية مع تاريخ جده إبراهيم الصباغ كاتب الشيخ المذكور وزيره ليكون التاريخان كالفرقدين لا يفترقان. ومن ثم عوّلنا بحوله تعالى على نشر هذا التاريخ. بعد معارضته بما في أيدينا من التواريخ مخطوطة ومطبوعة كما سنذكرها وقد اعتمدنا في هذا على النسخة المحفوظة في المكتبة الشرقية التابعة لكلية الآباء اليسوعيين الأفاضل في بيروت، (التي أصبحت بهمة حضرة الأب لويس شيخو من أغنى مكاتب الشرق بمخطوطاتها ومطبوعاتها باللغات المختلفة). وقد أبقينا النص على أصله إلا ما اقتضاه الأمر لإصلاح بعض أغلاط سهو في الأعراب التي لا يخلو منها كتاب قديم، وكذلك أضفنا ما وضعناه عنوانًا لفصوله، وجعلناه بين هلالين شرحًا وتفسيرًا، وما علقناه عليه من الحواشي التاريخية المقولة عن ثقات المؤرخين لزيادة الإيضاح وإزالة كل إشكال، ليكون هذا التاريخ موضع ثقة القارئ النجيب كما تقتضيه شروط نشر التاريخ القديم.

التاريخ الثاني منها بعد الأول بتفصيل وقائعه وأهميته هو «كتاب الروض الزاهر في تاريخ ظاهر» تأليف المرحوم عبود الصباغ العكاوي عم مخائيل المذكور. وعندنا نسخة منه منقولة بالتصوير الشمسي عن الأصل المحفوظ في مكتبة باريس بعدد ٤٦٢٠ من مخطوطاتها العربية في ثمانين صفحة بقطع صغير بخط يد المؤلف. وعبارته سهلة كسهولة مجرى الحوادث التي وصفها في كتباه بسياقها الطبيعي بدون تكلف ولا تصنع، حتى إنه لا يبالي بقواعد الصرف والنحو والإعراب. وقد كتبه وهو في دمياط وقد أثرت لهجة مصر في كلامه حتى بدت على قلمه فيه. ولعله كتبه باقتراح ابن أخيه مخائيل المذكور وأرسله له إلى باريس ليستعين به على تأليف تاريخه السابق ذكره. إلا أننا من مطالعة التأليفين نرى أن مخائيل لم ينقل شيئا من تاريخ عمه ولا أشار إليه بكلمة في تاريخه، وإن اتفقا بذكر بعض الحوادث. وهذا يحملنا على القول بأن مخائيل مات قبل وصول كتاب عمه إليه أو بعد ذلك بقليل.

الثالث من هذه التواريخ هو خبرية حضور أبي الذهب إلى الشام أولا من قبل علي بك وحضوره إليها ثانيا إذ فتح غزة ويافا ومات على أبواب عكا. ثم حضور حسن باشا وقتل ظاهر وأخذ أولاده وأمواله وأخذ إبراهيم الصباغ وأمواله وقتله له غدرًا في إسلامبول بعد أن خرج من السجن مبرزًا. وهذه الخبرية طالعناها في مجموعة تاريخية بنسخة في مكتبة دير المخلص ونسخة ثانية في مكتبة باريس وفي نسخ غيرنا. وقد كتبها جامعها في نصف القرن التاسع عشر ولم يذكر اسمه فيها لتكون مفكرة لطيفة له ولسواه من محبي التاريخ. وهو من طائفة الروم الكاثوليك ومن دمشق، كما تدل على ذلك بعض فصول هذه المجموعة.

الرابع منها «قصة ظاهر العمر حاكم عكا» نقلناها في ١٦ صفحة عن نسخة في مكتبة حضرة صديقنا الأستاذ الفاضل عيسى اسكندر المعلوف، أحد أعضاء المجمع العلمي العربي، منقولة عن نسخة في القدس الشريف. وهي غفل من اسم كاتبها. وقد صدّرها مؤلفها بجدول وزراء الشام من سنة ١١٢٠ إلى سنة ١٢٢٣ هجرية. وقد ضبط سنة توليهم وأهم الحوادث بالتاريخ الهجري. ويغلب على قلمه كلام العامة الدارج بلهجة أهل مصر. وقد أشبع الكلام تفصيلًا عن أعمال حسن باشا في عكا وقد نقل صورة جوابه وإخطاره الأخير إلى ظاهر قبل ضرب عكا. ومن ثم يبان لنا أن المؤلف مسلم من فلسطين أو من البلدان المجاورة لمصر والتابعة لإيالة الشام.

الخامس منها «قصة الشيخ ظاهر العمر» نقلناها كذلك في ست صفحات عن نسخة في مكتبة حضرة الأستاذ المشار إليه منقولة عن نسخة في مكتبة يعقوب أفندي فرج ترجمان قنصل روسيا في القدس سابقًا. وهي غفل أيضا من اسم مؤلفها. ونرى أن صاحبها قد وقف على تاريخ جودت باشا أو تاريخ نوفل نوفل الطرابلسي أو كتاب أسفار فولنه (volney) الفرنسي ولخّص ذلك تلخيصا بكل إيجاز ولم يزد عليه

شيئًا.

ثم ما عدا المراسلات التي سننشرها بنصها في آخر هذا الكتاب راجعنا أيضا كتب التاريخ التي تكلم أصحابها عن الشيخ ظاهر وكان بعضهم معاصرًا له أو قريب العهد إليه.

أولا: تاريخ القس روفائل كرامة الراهب الشويري الذي يبتدي من سنة ١٧٤٥ وينتهي سنة ١٨٠١.

ثانيا: تاريخ القس قسطنطين الطرابلسي الراهب الشويري الذي يبتدي سنة ١٧٢٩ وينتهي سنة ١٧٧٣.

ثالثًا: كتاب الدر المرصوف في تاريخ الشوف للقس حنانيا المنير الزوقي أحد رهبان الدير المشار إليه.

رابعا: تاريخ الأمير حيدر شهاب المخطوط وهو يختلف عن المطبوع في مصر سنة ١٩٠٠.

خامسًا: الجواب على اقتراح الأحباب للملعم مخائيل مشاقه المخطوط وهو يختلف كثيرًا عن المطبوع في مصر سنة ١٩٠٨ باسم مشهد العيان وقد حذف منه اللذان نشراه أمورًا كثيرة ذات شأن.

سادسًا: تاريخ نوفل نوفل الطرابلسي الذي نشر قسمًا منه في مجلة الكلية أسد أفندي رستم وقد اعتمد نوفل فيما كتبه عن الشيخ ظاهر على تاريخ الأمير حيدر وتاريخ جودت باشا التركي.

سابعًا: تاريخ الخوري مخائيل بريك الدمشقي وهو يبتدي من سنة ١٧٢٠ وينتهي سنة ١٧٨٠.

وكذلك راجعنا من كتب التاريخ المطبوعة التي خصص أصحابها الكلام عن الشيخ المذكور وخصومه مع شيء من التفصيل تاريخ الجبرتي المصري والمرادي الشامي وفُولته الفرنسي[١] ومجموعة المرحوم الاب إنطوان رباط اليسوعي[٢] وما نشره عنه أصحاب دائرة المعارف العربية ويكاد يكون موجز فولته وما حرره في مجلة المقتطف جرجي أفندي يني نقلًا عن فولته. والأمير حيدر وجودت باشا، مع شيء من المقابلة والنقد، وما كتبه عنه المرحوم نعمان القساطلي في مجلة الجنان سنة ١٨٧٥ إلى ما ذكره القس أسعد منصور في تاريخ الناصرة المطبوع بمصر سنة ١٩٢٤ وغير ذلك مما سنذكره في محله والله ولي التوفيق.

تنبيه: بعد أن نشرنا قسمًا من هذا التاريخ الشائق تباعًا في المسرة حال دون ذلك ما جرى علينا من الثوار في دير مار سركيس في معلولا وما فعلوه من تمزيق كتبنا وأوراقنا وسلب كل ما وصلت إليه أيديهم وقد نال هذا الكتاب ما نال سواه من مخطوطاتنا فإنهم مزقوه كل ممزق واقتضى لإعادة أوراقه كما كانت كلفة ووقت طويل. وإذ طلبت منا إدارة مجلة المسرة أن ننشره لوحده ونجعله هدية للمشتركين في هذه السنة فعلنا حبًّا وكرامة.

وإذ وجدنا الأصل المخطوط مشوشًا ومضطربًا الكلام فيه في بعض المواضع لما وقع في الأصل المنقول عنه من الخلل والتشويش في ترتيب صفحاته المتناثرة وربما سقط بعضها وفقد كان لا بدَّ لنا من إصلاح هذا الخلل ووضع كل شيء في المحل

---

(١) Voyage en Egypte et en Syrie par C. Volney. 2 Vol.

(٢) Documents inédits pour servir à l'histoire du christianisme en Orient

الذي يقتضيه فيه بعد معارضته على ما في يومنا من التواريخ المذكورة هنا والله ولي التوفيق.

توطئة

لا بد لنا في مقدمة هذا التاريخ من كلام إجمالي في بيان أحوال الحكومة في إيالة صيدا في الزمان الذي وقعت فيه حوادثه أي منذ مائة وخمسين سنة تقريبًا، وقد تحولت تلك الأحوال وتغيرت فيها الأحكام والحكَّام حتى صار ما كان منها مألوفا غير معروف اليوم، وقد يتعذر على كثيرين فهم ما جاء في هذا التاريخ من العبارات والمفردات التي كانت جارية حينئذ على ألسنة القوم وأقلام الكتَّاب ومسجلة بحكم العادة والعرف العام والخاص. وهي غير منزلة في كتاب ولا قاموس في لغتنا العربية وقد أفسد معناها بعض المتطفلين على كتابة التاريخ، وهم يظنون أن الوالي كان حينئذٍ بمقام الوالي في أيام السلطان عبد الحميد وأيام السلطان محمد رشاد.

وأن الولاية كالإيالة أو مشتقة منها وإن عسكر الدولة المنظم على نظام أوربا الجديد نظير عسكر الدالاتية أي عسكر الدولة القديم أصحاب الوجاقات لا فرق في ذلك إلا بالأشخاص. ومن ثم نقول:

قبل تشكيل الولايات في تركيا بإعلان التنظيمات والدستور كان يطلق اسم الوالي على كل من يلي أمر الحكومة في البلد بالإجمال ولو كانت البلد قرية أو كما يقول جودت باشا كان بمقام مأمور الضابطة في البلد.

وصاحب الإيالة يدعى وزيرًا ونائب السلطان وسنجقًا أي أمير السنجق وصاحبه. لأن تشكيلات تركيا كانت إلى ذلك العهد عسكرية بالإجمال. وكان بيده السلطة العسكرية والملكية أو الإدارية والمالية والعدلية أو الجزائية لا شريك له فيها إلا من أحب أن يجعله تحت يده من الاتباع

والحكام الصغار. ومن ثم كان أمر حياة الأفراد وموتهم متعلقًا على رضاه ويقدر أن يسوق الجند لقتال من تمرد عليه وخراب ديارهم ومحو آثارهم من الأيالة. والغاية كان الوزير في الأيالة حاكمًا عامًّا من قبل السلطان مستقلًّا فيها على الطريقة المعروفة اليوم عند أرباب السياسة بالطريقة اللامركزية ولهذا يقال له نائب السلطان وولي النعم.

وكان الوزير المذكور يلتزم الأيالة من الباب العالي أي الوزير الأعظم بمال معلوم مع هدية سنية من المال على وجه ثابت أو كما كانوا يقولون على سبيل الملكانة. وكان الوزراء يلتزمون الأيالة من قبل لمدة سنة فقط. وقد يتجدد هذا الالتزام لصاحبه إذا اقتضى ذلك حسن حاله. ويقال لهذا الالتزام مقطع. لكن ألغاه السلطان مراد الثالث لما فيه من دواعي الإهمال والخراب.

وكانت أيالة صيدا حينئذ تمتد من جسر نهر المعاملتين في لبنان إلى حيفا لأن حيفا وبلاد حارثة ويافا وجبل نابلس وغزة وفلسطين كانت تابعة أيلة الشام الواسعة وكانت مع هذا يافا ونابلس من الأملاك الهمايونية الخاصة ببني عثمان ومن ثم كانت (ديرة) أيلة صيدا ضيقة ضيق سيف البحر لا تتجاوز مدن الساحل وضواحيها وبلاد صفد لأن أكثر البلاد الداخلة بحدودها ولا سيما العالية في الجبال كان الغالب فيها الحكم الإقطاعي حيث لم يكن للوزير يدٌ إلا ما ندر.

والحكم الإقطاعي له شيء من الاستقلال إذا كان لكل مقاطعة من البلاد شيخ من البيوت القديمة ذات الصولة وله كلمة نافذة في قومه، وهم يشدون أزره ولا يخرجون في شيء عن أمره –وقد يكون صاحب المقاطعة أميرًا تابعًا لأمير أعظم منه– وهو يلتزم مقاطعته التي فيها أملاكه وقومه من الوزير رأسًا أو على يد الأمير على سبيل الملكانة بمال مقطوع أي بمال معين على وجه قطعي لا يقبل الزيادة يقال له مال

الميري يدفعه له مع هدية مالية يقال لها عوائد. وأصحاب المقاطعات لا يدعون الباشا يتداخل بأمر بلادهم وإلا قاموا بوجهه وتمردوا عليه في حصونهم وجبالهم واتحاد كلمتهم وكان أصحاب المقاطعات في لبنان من أمراء ومشايخ يرجعون في أمرهم إلى الأمير الكبير من بني شهاب وهو الحاكم العام وهم مناصب البلاد ومنهم يتألف مجلس الأمير وهم عمدته برجالهم من الدروز والنصارى.

وكان كذلك أصحاب مقاطعات جبل عامل من مشايخ المتاولة فكان بنو صعب في مقاطعة الشقيف وبنو منكر في الشومر والتفاح وبنو علي الصغير في بلاد بشارة. وكانت الزعامة في هذا البيت. وكان كبيرهم الذي يرجعون بأمورهم إليه الشيخ ناصيف النصار ويدعى شيخ مشايخ التاولة وفي معرض التبجيل يقال له أمير. ولما كان التاولة من أهل الشيعة كان الأتراك (وهم من أهل السنة) يكروهونهم لدينهم وهم يكرهون الأتراك لذلك. وكذلك الدروز في لبنان.

وأما أصحاب مقاطعات بلاد صفد فكانوا لذلك أقل نفورًا منهم وسيأتي عليهم كلام المؤلف مفصلًا في محله.

وكل أصاحب هذه المقاطعات لهم في جبالهم حصون منيعة ويقيمون في قلاع قديمة من بقايا آثار الصليبيين ولهم رجال أشداء من عشائرهم لا يعرفون الجبانة في القتال ولا الخيانة لزعيمهم ولا مخالفته في أمر وبهذا كان لهم فضل ومزية فخر على عسكر الدولة.

وكان عسكر الأيالة الذي يكون تحت أمر الوزير خمسمائة من الخيالة أو الفرسان وخمسمائة من المشاة أو الرجالة ويسوغ له أن يزيده لأجل زيادة هيبة الوزارة إلا أنه تخفيفًا لثقلة معاشهم عليه كان يكتفي بنصف هذا العدد.

ولم تكن أيلة صيدا فيما نرى نظير أيالة الشام وباقي آيالات الدولة فيها وجاقات من أهل البلاد من أصحاب الزعامات والتيمار والانكشارية والقبوقولي وسواهم لقلة شأن هذه الأيالة ولعدم ثقة الوزير بالأهالي ومن ثم كان.

عسكر الإيالة أخلاطًا من الأرناووط والأكراد والتركمان ومن أهل بغداد أو العراق وهم الخيالة. وكان المشاة غالبًا من المغاربة من أهل تونس والجزائر وطرابلس ومصر والسودان وفيهم العبيد السود والمماليك البيض فكانوا يتألفون لذلك طوائف مختلفة على اختلاف لغاتهم وبلادهم ويجتمعون إلى وجاق أو مطبخ خاص يتناولون فيه قوتهم وإليه تنسب أفرادهم وتوسم على زنودهم علامته أو نيشانه. وكان لكل وجاق رئيس أو زعيم من أفراده يتكلم بلسانهم وله الكلمة النافذة فيهم وبيده زمام أمرهم لدى الوزير وهو يوزع عليهم الجامكية التي هي أعطيات الوزير يقال له أغا الوجاق وبلوكباشي وشاويش.

ومن حيث إنهم غرباء ومأجورون عند الوزير فلم يكن يهمهم أمر البلاد ولا الأهالي. وإذ لم يكونوا على شيء. من حسن النظام العسكري والتربية ولم يكونوا من العيال الشريفة بل كانوا غالبا من الرعاع وأهل العصابات والشقاوة فكان دأبهم الثقلة على الأهالي في ديارهم والتعدي عليهم وهم يحسبون ذلك غنيمة باردة بدون حرب ولا قتال. وقد أحلّها لهم هذا سكوت الوزير ورضاه الصريح والحاجة والعادة ولهذا كان عسكر الدولة يحسب البلاء الأعظم على أصحاب القرى والمزارع الذين لم يكن لهم قوة أن يدفعوا تعديهم عنهم. وكانت ثقلتهم أشد على النصارى حتى في المدن فكانوا يسومونهم من أصناف المغارم والسخرة والضرب والشتم ما لا يسعنا شرحه هنا وهم يفعلون ذلك باسم الدولة العلية أو باسم الوزير نائب السلطان ولي النعم. ولهذا كان عسكر الدولة أو الدالاتية مكروهًا ومحتقرًا حتى كان

يضرب المثل بسفالتهم مما لا يزال دارجًا إلى اليوم بقولهم فلان نظير عسكر الدولة ملحه على ذيله أي لا ذمة له ولا عهد ولا بذكر الخبز ولا الملح بفيه...

ومع هذا كان دخل وزير الإيالة من أصناف الضرائب والمغارم شيئًا كثيرًا:

أولًا: مال التزام جبل لبنان وجبل عامل وبلاد صفد من المشايخ والأمراء.

ثانيًا: مال التزام الجمرك في المدن البحرية صيدا وصور وعكا على الوارد والصادر وأهم الصادرات حينئذ القطن والسمسم.

ثالثًا: مال الخراج على الأراضي وكان يؤخذ مقابل هذا ربع حاصلاتها.

رابعًا: مال الجزية ويسميه الأتراك مال الأعناق وكان يسميه العرب في صدر الإسلام مال الجوالي وهو يؤخذ من أهل الذمة من اليهود والنصارى.

خامسًا: مال الباج وهو رسم خفارة الطريق من الغرباء والتجار.

سادسًا: مال المغارم العمومية التي يتقاضاها من جميع أهل الإيالة والخصوصية التي يفرضها أو يأخذها من بعض الأفراد على سبيل الجزاء أو على سبيل الإعانة.

سابعًا: دخل بيت مال المسلمين وأهم ما فيه مخلفات من لا وريث له من أهل البلاد والجند والحجاج وأبناء السبيل.

ثامنًا: مال العوائد أو الهدايا من الاتباع المأمورين ومن الأغنياء والأمراء والمشايخ وقناصل الإفرنج وتجارهم الذين كانوا في الإيالة بصفة مستأمنين فإنه كان يتقاضى ذلك منهم كحق واجب عليهم ورفض دفعه أو قطع هذه العوائد صعب ويعد إهانة أو حط من كرامة الوزير.

وكان للوزير أتباع وحاشية كبيرة من المماليك والخدم والعبيد. وأولهم وأعظمهم شأنًا الكتخدا ويلفظونها كيخية وهو الوكيل أو المعاون والمساعد له في أمور الإيالة. وينوب عنه إذا غاب بل يأمر وينهي بحضوره. وهو غير الكتخدا أو الكيخية الذي يكون وكيله وعمدته في إسلامبول وينم إليه بالأخبار التي تهمه منها وقد جعله هناك عينًا له وجاسوسًا.

ومن كبار أتباع الوزير الصراف فإنه يحضره معه من أغنياء الأرمن أو اليهود البارعين بالحسابات وقد يكون هذا الصراف دفع سلفًا عن مولاه مال التزام الإيالة فيفوض إليه الوزير النظر بتحصيل وتوريد الأموال للخزينة.

ومن كبار أتباع الوزير كاتب الديوان التركي ويدعى رئيس الديوان يختاره الوزير غالبا من كتاب الأتراك البارعين بحسن الخط والإنشاء في التركي ويقلده الوزير تحرير الكتابات إلى الباب العالي وغيره من وزراء الدولة.

ومن رجال الإيالة اليازجي وهو كاتب العربي يختاره الوزير غالبًا ممن يحسن الخط والإنشاء في العربي لتحرير الأوامر والمراسلات باللغة العربية وكانت هذه الوظيفة في الغالب وراثية في بعض العيال من الروم من أهل البلاد وقد تمرنوا على ذلك تحت نظر والدهم أو أحد أقاربهم.

وأما المفتي والقضاة الأربعة لأصحاب المذاهب الأربعة أو الأئمة الأربعة في الإيالة فلم يكونوا من الأتراك وإنما كانوا من الإيالة أو من الأهالي.

ومن حكام الإيالة المتسلم وهو الحاكم من قبل الوزير في المدينة ذات الشأن وأصغر منه وأعم الوالي وأصغر منه الشوباصي ودونه الشاويش الذين يتولون الحكم من قبل الوزير أو المتسلم في القرية أو البلدة الصغيرة ولكل من هؤلاء الحكام

والأتباع عمّال وكتّاب وأتباع تحت أيديهم مما لا طائل بذكرهم مفصلا وبما تقدم كافية والله تعالى ولي التوفيق.

الزيادنة

الزيادنة عيلة كانت نازلة في بني أسد العرب النازلين في البراري التي حول معرّة النعمان بين الشام وحلب يرحلون مع بني أسد أينما رحلوا وينزلون حيث نزلوا. وكانت تدّعي هذه العيلة أنهم أشراف من بني زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب من فاطمة -وبهذا يرجعون إلى عرب الحجاز كما قال البعض- وهم بين أعمام وأخوة وأولاد أعمام وأولاد أخوة مقدار خمسين نفرًا. وكان كبيرهم الذي يرجعون بالأمور إليه عليّ. ومات علي وترك مكانه عمر ابنه فتزوج عمر امرأة من عرب السردية فولدت له ثلاثة أولاد عليّ والثاني سعد والثالث ظاهر[1].

---

(١) هذا أوجه ما قيل في الزيادنة وما ذكره عنهم البعض من المتأخرين بخلاف هذا إنما هو رجم بالغيب إذ لم يعرفوا ولم يشتهروا إلا بظاهر وأول من صار منهم شيخًا أبوه عمر سنة ١٦٩٨ على رواية الأمير حيدر بمخطوطه فان الأمير بشير شهاب الأول أقامه شيخًا على بلاد صفد؛ لأنه كان قيسيًا نظيره ليغريه بالشيخ السابق من بيت البيتم لأنه كان يمنيًا.

وقال عبود الصباغ: كان في طبرية من معاملة بلاد صفد من إيالة صيدا رجل فلاح متقدمًا على بقية الفلاحين فأراد أن يلتزم طبرية من وزير صيدا عن يد أمير الدروز فقبل معه الوزير وأعطاه طبرية التزامًا بكفالة أمير جبل الدروز وصار كل سنة يدفع مال الميري عن يد أمير جبل الدروز ثم ولد له ثلاثة أولاد عمر وعلي وشحطة وبعد مدة مات أبوهم وقام عوضه ولده عمر الذي كان أكبر أخوته وصار يلتزم طبرية من وزير صيدا عن يد الأمير. وأما علي فبعد أن مات أبوه انتقل إلى الساحل وسكن الدامون والتزمها من وزير صيدا باسم أخيه عمر لأنه لم يكن يريد أن يكون له اسم عند الدولة وولد له ولد سماه محمدًا. وأما شحطة فإنه بقي عند أخيه عمر ثم ولد لعمر أربعة أولاد سعد ويوسف وصالح وظاهر وبنت اسمها شما تزوجاه ابن عمها محمد العلي وكانت أخت ظاهر لأمه ولما مات علي قام عوضه ابنه محمد ولما مات عمر ما رضي سعد ويوسف وصالح أن يخرجوا الالتزام باسمهم بل باسم أخيهم ظاهر لسبب وحدة حالهم وكلمتهم وصار الالتزام يخرج من وزير صيدا

وكان عمر يتردد كثيرا إلى الشام وحلب ببعض المتاجر حسب عوائد العرب فربح من ذلك أرباحا كثيرة اتسعت دنياه وكان ابناه سعد وعلي كبرا فصار يصحبهما معه في أسفاره ولما رأى بعض أجلاف بني أسد اتساع مال عمر وغناه حسدوه وتثاقلوا عليه فافتكر عمر وقال: لا خير في قوم يكون المرء منهم محسودًا ومن أجلافهم محتقرًا مخذولًا. وكان قد أتى الخليل من قبلُ بقصد الزيارة وتعرّف هناك ببعض الناس فقام وجهز حاله وشد رحاله بعد أن اجتمع بأهل بيته وعرض عليهم أن يرحلوا إلى الخليل ويقيموا هناك إلى أن يروا رأيهم فاتفقوا على ذلك وقاموا جميعًا وشدوا رحالهم وسافروا ونزلوا عند قيسارية[1] فأقاموا قليلًا فما أعجبهم المكان لقبحه وخرابه فانتقلوا منه إلى نواحي الأردن في برية طبرية وتعرفوا بكبير قومها أو شيخهم فأعجبتهم فاستوطنوها ورأوا أراضيها خصبة فاستفحلوا بها واشتروا الغنم وأخصبت معهم وكان ذلك سنة ١٧٠١.

وكان ظاهر له من العمر حينئذٍ اثنتي عشرة سنة[2] فجعله أبوه عند أحد المشايخ العلماء اسمه عبد القادر الحفناوي ليعلمه قراءة كتاب الله وبعض الأدب والكتابة.

وكان عمر من الكرم والجود في الغاية فرتب في بيته منزلًا للضيوف فكان كل غريب يأتي من الشام أو سواها أو من مشايخ العربان من أية قبيلة يستقبله بالرحب

مال الميري والمذكور يدفعه للدولة وهكذا صار الاسم لظاهر عند الدولة والشيخة عند الفلاحين وكان عمره حينئذ أربعة عشر سنة. اهـ

(١) المراد بها قيسارية فلسطين القديمة وهي اليوم خراب على البحر ما بين حيفا ويافا.

(٢) ولد ظاهر على رواية المرادي سنة ١١٠٦ هجرية الموافقة سنة ١٦٩٤ مسيحية وعلى حساب فولنيه الفرنساوي ولد سنة ١٦٨٥ وعلى حساب عبود صباغ سنة ١٦٨١ وعلى حساب مخائيل في النص سنة ١٦٨٩ ولا غرابة في هذا الاختلاف إذ لم يكن لظاهر شأن حين مولده للاهتمام به وقيد تاريخ سنة ...

والسعة وينزله عنده ويذبح له الذبائح أن كان من أهل النعم ولذلك شاع صيته في تلك النواحي وأحبه أهل طبرية. لكن ما استقام طويلًا حتى مرض بالاستسقاء ومات.

وكان علي ابنه الكبير لا يتعاطى شيئًا مهمًّا بل كان دائمًا في حاله ملازمًا منزله وما أقام كثيرًا بعد أبيه حتى مات[1].

وكان سع ابنه الثاني له من العمر حينئذ عشرون سنة فقام مكان أبيه، ما نقص شيئًا مما مشى عليه ابوه من الخير والكرم وضيافة الغرباء والتيقظ إلى سياسة بيته وتربية أخيه الصغير وأولاد بني عمه على تقوى الله والذب عن أهل البلد النازلين بأرضها.

الفتى النجيب

وما زال ظاهر يمضي عند الشيخ عبد القادر يتعلم. وإذ كان حفظ القرآن وتعلم الكتابة وابتدا يدرس في الأدب أنفق أن أحد المشايخ العلماء من الشام يسمى عبد الغفار الشويكي جاء زائرًا الخليل وبعد زيارته الخليل قصد أن يتفرج على بقية الآثار حتى وصل إلى طبرية فتلقاه سعد بكل إكرام وأنزله عنده وقام بشأن ضيافته بل سعة. فلما كان ميعاد العشاء جاء ظاهر من درسه فسلَّم على الشيخ وجلس أمامه فقال الشيخ لسعد ماذا يكون منك هذا الغلام.

قال له سعد هو أخي شقيقي يتعلم القراءة والكتابة وحفظ كتاب الله والأدب.

---

(١) نرى عليًّا كان أخا لعمر على رواية عبود وكان سعد بكر أولاده وابنه الثاني اسمه صالح قتله باشا [illegible]

فالتفت الشيخ إلى ظاهر وقال له: هل حفظت يا ابني كتاب الله.

قال له ظاهر: نعم يا شيخي.

قال له الشيخ: وماذا أعجبك منه.

قال: أعجبني كله غير أن الذي رسخ في قلبي أكثر قوله تعالى: {اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء} إلى قوله: {أنك على كل شيء قدير}.

فقال له الشيخ: وماذا حفظت من الأشعار.

فقال: حفظت من كل باب شيئًا.

فقال له الشيخ: وأي قول استحسنته منها أكثر

أجاب ظاهر قول الشاعر:

إن العواذل قد أتعبنتي نُصُبًا ... وخلتهن ضعيفات القوى كُذُبًا
فاعص العواذل وارم الليل عن عُرُضي ... بذي سبيبٍ يقاسي ليله خببا
حتى تنال المعالي أو يقال فتى ... لاقى الذي يشعب الفتيان فانشعبا[1]

ثم قال له الشيخ: وهل قرأت شيئًا من التواريخ؟

---

(١) هذه الأبيات نخبة من قصيدة، مطلعها البيت الأول. المراد بالعواذل النساء من باب الكناية، وذي سبيب كناية عن الفرس، والمراد بالذي يشعب الفتيان أي يهلكهم الموت. ومعنى هذه الأبيات أن النساء تتعب الرجال ولو كن ضعيفات القوى والجسم فاعصهن وسر ليلًا غير مبالٍ بأهوال الليل واتخذ رفيقًا لك فرسًا يقاسي تعب الليل بالسير السريع حتى تلاقي ما يعلو به شأنك أو أن تلاقي